الفصل الأول

فهم تنمية الطفولة المبكرة

"الأطفال هم الرسائل الحية التي نرسلها إلى زمن لن نراه..."

نيل بوستمان

أهداف الفصل:

بعد قراءة هذا الفصل، لابد وأن تكون قادراً على:

- تعريف المفاهيم والعمليات الهامة للتنمية في الطفولة المبكرة، ويشمل ذلك عوامل الخطورة والمرونة والحساسية والحماية.
- مقارنة ومطابقة مجموعة من المنظورات النظرية حول التنمية المبكرة.
- وصف أسباب الإعاقة والتأخر التطوري أثناء سنوات الطفولة المبكرة باستخدام لغة "الناس أولاً".

وعندما تفكر وتطبق محتويات الفصل بنفسك لابد وأن تكون قادراً على:

- تحديث وتوضيح آرائك حول التنوع في أطر الطفولة المبكرة، وما يتضمنه ذلك من فروق فردية في النوع والثقافة والجنس والأصل والقدرة.
- استخدام مجموعة من النظريات التطورية لتفسير وفهم سلوك الأطفال الصغار.

تلخيص 1-1- "إنني لا أعتقد في تطور الطفل":

لا يعتبر الفهم الدقيق للتطور في الأطفال الصغار مهمة مستحبة لدى الجميع. ولدى سؤالي أحد أقاربي قال لي يوماً "إنني لا أؤمن بتطور الطفل". في البداية، فهمت عبارته على أنه لم يكن يرغب حقاً في سماع نصيحتي حول سلوك أبنه العنيد البالغ من العمر عامين. وأركز دائماً عند إعادة سرد هذه القصة على النهاية غير المتوقعة للمحادثة وعلى حيرتي بصفتي أخصائي في تطور الطفل من أن أي أب قد يبالغ في أهمية التعليم المبكر والنضوج.

وعندما بدأت أفكر في فصل تمهيدي لهذا الموضوع تبادر إلى ذهني تفسير أكثر عقلانية حول هذا التعليق وهو أن نسيبي مجرد ليس مهتماً بفهم النظريات والأنماط الأكاديمية لتطور الطفل وقد يكون ببساطة متعجباً من غرابة وغموض حياة أبنه بدلاً من السعي للإدراك المنطقي لكل تغير يطرأ على سلوك أبنه ويصبح غموض عملية النمو أكثر أهمية عنده من أي تفسير علمي أو طبي أو تعليمي أو تطويري.

ويمكنني فقط الاعتراف بفضل الغموض على الفهم عندما أتذكر مقاومتي لمحاولات والدي عندما كان يعلمني حركة الأمواج. فأمواج المحيط ظاهرة أشاهدها أكثر مما أعرفها وأقدرها

ولا أقوم بتحليلها. وأود أن أجرب شعور إثارتي ودهشتي من عدم القدرة على استنتاج ومواصلة التعجب الشديد لعدم معرفتي كيف أو لماذا تتحرك الأمواج بهذه الصورة؟

ولكن، لا يوجد لدى قراء نصوص تطور الطفل رفاهية الاعتماد فقط على التفسيرات الرومانسية والشرعية والأسطورية للنمو المبكرة فأخصائيو الطفولة المبكرة أمامهم مسئولية تجاه كل طفل يقومون على خدمته مما يتطلب منهم اكتساب وتطبيق المعرفة حول عملية التطور كريس سلينتز .*(Kris Slentz)*

من هو الطفل وما المقصود بتطور الطفل؟

هناك الكثير من المعاني المختلفة لوجود الطفل تختلف تبعاً للأشخاص المشاركين في حياته أو حياتها. فبالنسبة للآباء، قد يكون الأطفال نتاجاً للتخطيط المتأني أو مفاجئة العمر، وقد يكونون الأحلام التي تتحقق أو تبدد، ويعتبرونهم إنعكاساً لأنفسهم وشخصيات محيرة تماماً. ويقدم الأحفاد فرصة جديدة للأجداد للاستفادة من قدرات الأبوة لديهم ولعب أدوار جديدة لأنفسهم ولأطفالهم وما يمثله ذلك من الشعور بالشباب خلال سنوات العمر المتقدمة ويصبح الأقران بالنسبة لهم مشجعين وأخلاء ومصادر الثقة. ويدخل كل ولد أو بنت منظوراً آخر ومكوناً على تفاعلات الجماعة: فأحياناً ما يكون لهم تأثيرٌ هادئ ومريح وفي أحيان أخرى يكونون عنصراً للخطر والإبداع ويمكن أن ينظر الجيران إلى الأطفال الصغار كهمزة وصل خاصة في المجتمع أو أعضاء تنوب عن الأسرة أو قد يمثلون خطورة على هذه العلاقة.

وبالمثل، يمكن إجراء دراسة نمو وتطور الأطفال من خلال الكثير من المنظورات. فعلم النفس التنموي على سبيل المثال يطبق النظرية والأبحاث لفهم أسباب ونتائج التغييرات المرتبطة بالعمر في سلوك الأطفال كما يعتبر علم النفس العصبي للأطفال منظوراً علمياً على أثر بناء المخ ووظيفة السلوك، بينما يركز أطباء الأطفال على الاحتياجات الطبية الفريدة للأطفال. بينما يركز المدافعون عن الأطفال طاقاتهم على القوانين الخاصة بالصغار وعلى العملية القضائية عندما تضم الأطفال في نظام المحاكم. ويهتم القادة الدينيون بالجوانب الروحية والخلقية لحياة الأطفال، في حين يسعى المعلمون لمساندة النمو المادي والمعرفي والتأثيري من خلال النظام التعليمي. أما الأسرة والأصدقاء فإنهم يعرفون ويحبون الأطفال من خلال الأنظمة اليومية للمنزل والحياة الاجتماعية وتشجع الاستقلال من خلال الرعاية والتغذية.

ويضع كل ذلك وأكثر منه إطاراً لنمو كل طفل مما يقدم خلفية ومنظومة تخطيط لتنشئة الشخص الذي سيصبح عليه الطفل عندما يكبر.

ويفضل الأشخاص الذين يؤثرون في حياة الطفل مناهج ومجالات للسلطة والتأثير وموارد وتدريبات معاصرة مقترحة بالإضافة عادة إلى معتقدات وآراء قوية وترتبط الأنظمة المهنية بذلك ولكنها تتميز بمجالات للمحتوى تشمل التدريب والبحث والدراسات وفي إطار الحياة اليومية للبنات والأولاد الصغار، هناك "حقيقة" موضوعية حول نمو الطفل من أي منظور. وتخلق الأحداث والتفاعلات اليومية للطفل محتوى ثري وعمل يتقدم دائماً. ويهدف هذا الكتاب إلى تكامل الأبحاث والنظريات والتمرينات التي ترتبط بالاطفال بدءاً من الميلاد وحتى سن ثماني سنوات مع تطبيق المعرفة الناتجة على المدرسة والمنزل وبيئات المجتمع. ونتيجة لذلك يجب أن تبحث عن عرض المعلومات بصورة موضوعية واحترافية وأن يكون لها أساس في الأنظمة والأنشطة اليومية للأطفال الصغار والكبار المسئولين عن رعايتهم.

معلمو الطفولة المبكرة والحاجة لاكتساب المعرفة حول التطور:

بالنسبة لغالبية الأطفال، تعتبر التغييرات في حياة الأطفال الصغار أكثر أهمية لكونها هي العملية الحالية للتربية أكثر من كونها مجرد مجال للدراسة. وتنشأ معتقدات وآراء وتفسيرات الآباء للتطور من خبرات مميزة مع أطفالهم كما أوضحنا في تلخيص *1-1*.

ولا يوجد ما يمكنه أن يقدم أساساً أفضل للعلاقة بين الآباء والطفل.

وعلى الجانب الآخر، فسيكون عملك في يوم قريب توفير الرعاية والتعليم والإرشاد للرضع أو الأطفال أو أطفال ماقبل المدرسة أو أولاد وبنات مدارس التعليم الأساسي. ويتعرض عادة مجال تعليم الطفولة المبكرة والأشخاص الذين يمثلون هذه المهنة إلى قليل من التقدير والتقييم في مجتمعنا وفي الدوائر التعليمية. ويسمع الكثير منا عن مدى اللطف والصبر الذي يجب أن نكون عليه مع قضائنا وقتاً مع الأطفال الصغار قد يمتد ليشمل اليوم كاملاً.ويعتبرنا الكثيرون في أحيان كثيرة جلساء للأطفال، مجرد "يلعبون" مع الأطفال بدلاً من النظر إلينا على أننا "معلمون حقيقيون" لمحتوى أكاديمي وتعكس أجور برامج رعاية الطفل فكرة أن المؤهلات اللازمة فقط هي تسلية الطفل ولعب دور الأمهات وأن نكون أكبر ممن يتولى مسئوليتهم (فريق دراسة كم وجودة النتائج للطفولة *1995* . ***(Howes, 1987)***

ويعترف عدد قليل من الأشخاص خارج المجال أن الذكاء والقدرة والإبداع أمر ضروري لتخطيط وتنفيذ المناهج عبر تلك الأعمار ومستويات المهارة المتنوعة بشدة. وتتواجد مثل هذه

المواقف على الرغم من حقيقة أن هناك عدداً من التدريبات التعليمية الأكثر تقدماً يتم تشجيعها في المدارس العامة حيث يتم التدريس في بيئات الطفولة المبكرة. وتشكل المجموعات متعددة الأعمار وفرق التعليم والمناهج المتكاملة والتعليم المبني على الأنشطة والمناهج متعددة الثقافات على مدى عقود أساساً قوياً للعمل مع الأطفال الصغار في مجموعات.

ويشغل المعلمون دوراً هاماً في حياة الأطفال الصغار وخاصة خلال السنوات المبكرة عندما يكون للكبار تأثير أكبر على الأطفال من الأقران. ويتحمل من اختاروا منا العمل في مجال الطفولة المبكرة مسئولية التعرف على التغييرات المرتبطة بالسن في سلوك الأطفال وتحليل وتفسير الاختلاف عما هو متوقع ومساندة عملية التعليم المستمر.

وتعتبر المعرفة بتطور الطفل بدلاً من مجرد الآراء والخبرات الشخصية أساسا ضروريا للعمل مع صغار السن وأسرهم وغيرهم. وتوفر لك المعلومات التي يضمها هذا الكتاب توقعات واضحة للتطور المبكر، إلا أن هذه المعرفة ستكون مفيدة فقط في حالة تطبيقها على فهم السلوك وتوجيه عملية تعليم أي ولد وبنت تصادفه في حياتك. ويعتبر أفضل أخصائيي الطفولة المبكرة أولئك الذين يفهمون عملية تطور الطفل على أنها عملية يمر بها جميع الأطفال، مع الاحتفاظ بتقدير روعة وغموض حياة كل طفل حيث ينشأ داخل أطر أسرية وثقافية مميزة.

مفهوم التطور:

يعتبر تطور الأطفال الصغار أثناء الأعوام الثمانية الأولى من العمر رسالة واضحة تسير عادة بمفردها بدون التركيز الشديد بجوانبها العملية المميزة والمعقدة. ولكننا نضمن أنه خلال فترة قصيرة هي العام الأول، سيصبح الأطفال حديثي الولادة قادرين على الوقوف والتحرك والاتصال مع الآخرين. ونتوقع أن يطور الطفل بعد ذلك شعوراً بالذات ومعرفة عملية بالعالم من حوله. ولا يدهشنا أنه عند مرحلة الروضة، يكون غالبية صغار السن قد أتقنوا غالبية المهارات الحركية واللغوية والاجتماعية الأساسية والاهتمام بالنفس واللازمة لنجاح حياتهم عندما يكبرون. ويعتمد تنظيم مناهج التعليم الأساسي على افتراض أن الأطفال سيصبحون متعلمين ويمكنهم استخدام القراءة والكتابة كأساس لتعليمهم التالي.

وعلى الرغم أننا نتحدث عموماً عن التطور كعنصر ضروري ومتوقع للنمو والتعليم، ويعتبر مفهوماً يستحق مناقشته بمزيد من التفصيل. ويشير مصطلح "التطور" في هذا الكتاب إلى التغييرات التدريجية والتراكمية والمنتظمة سواء كانت بدنية أو نفسية والتي تؤدي إلى ظهور